

إشكالية كتابة تاريخ الجزائر الوسيط عند يحيى بوعزيز

نوال بلمداني

مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية،

جامعة معسكر

أنجبت الجامعة الجزائرية على غرار جامعات العالم الإسلامي باحثين ومؤرخين، يرجع لهم الفضل في تكوين العديد من الدفعات الطلابية التي سارت بدورها على نفس نهج مؤطريها في مجال طلب العلم؛ كما زود هؤلاء الدكاترة والباحثين المكتبة الجامعية بدراسات وأبحاث، تناولت تاريخ الجزائر من عدة جوانب وعبر مراحل مختلفة، وعلى رأس هذه الشخصيات الفذة المرحوم يحيى بوعزيز، الذي بذل مجهودا في مجال التأليف والتحقيق، وزود الجامعة الجزائرية بعناوين مهمة، حاولنا عرض البعض منها:

- الموجز في تاريخ الجزائر.
 - وهران عبر التاريخ.
 - تلمسان عاصمة المغرب الأوسط.
 - فريدة منسية أو تاريخ قسنطينة.
 - مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية.
 - ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين.
 - علاقات الجزائر الخارجية 1500 - 1830.
 - الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه (1912 - 1948).
 - المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح النسوية العربية.
- أما في مجال التحقيق فنذكر:

- روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين لابن سعد.
 - طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود.
 وتخليدا لمؤرخنا الراحل، سنحاول عرض إحدى هذه الأعمال التي أفادنا بها حول تاريخ الجزائر في العصر الوسيط، الموسومة بـ"الموجز في تاريخ الجزائر".
 الموجز الذي يرى أنه "ما يزال وسيبقى كذلك، جديدا في محتواه ولغته وأسلوبه وتسلسل أحداثه، وتحتاج إليه باستمرار المكتبة التاريخية، والأجيال الصاعدة، لأنه يلخص بوضوح وبإيجاز غير مغل، تاريخ الجزائر ومراحل وأحداثه الهامة من غابر العصور إلى حملة الاحتلال الفرنسية عام 1830م.
 ومن مميزات هذه الطبعة الجديدة احتوائها على إضافات جديد موسعة تكشف الستار عن أحداث تاريخية مهمة وشيقة..."; هذه هي نظرة يحيى بوعزيز للكتاب الذي صدر لأول مرة سنة 1965م، ليعاد طبعه سنة 1999م ثم سنة 2007م دون تغييرات أو تعديلات.

يحتوي الكتاب على 252 صفحة، جمعت مادته من مصادر ومراجع مختلفة، دون أن ينتقد محتواها، وأحيانا يعتمد على النقل الحرفي.
 استهل الجزء الخاص بالفترة الوسيطة بتمهيد حول أصل العرب ومواطنهم، حيث قسمهم من حيث الأصل إلى قحطانيين وعدنانيين، وأشار إلى أهم الدول والممالك العربية في العصر الجاهلي: (الدولة المعينية - السبئية - الحميرية - المناذرة - مملكة كندة)، كما نوه بدور القوافل التجارية واتصال العرب المستمر بالعالم الخارجي الذي كان له دور بارز في التطور الفكري والحضاري لمجتمعاتهم، إلى أن وصل إلى مولد النبي الكريم وظهور الإسلام، ملخصا في ذلك أهم أحداث الفترة بإيجاز قبل أن يصل إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وما حدث من فتن بعده.

أما العنصر الثاني فقد خصصه للفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا، مستهلا ذلك بخطوات الفتح، وأهم قادته عمرو بن العاص، ابن أبي سرح، معاوية بن أبي حديج الكندي، عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار وكسييلة قائد الحملة البربرية ضدهم، وما أنجزه كل واحد منهم في مجال التوسعات واخضاع القبائل؛

كما أشار الى ما وقع بين حسّان بن النعمان والكاهنة ، وما فعلته هذه الأخيرة من أجل وقف زحف الجيوش العربية ، ووقف عند توسعات موسى بن نصير وطارق بن زياد وبلوغهما الأندلس.

قبل أن يعرفنا الأستاذ على مدينة تاهرت مهد لذلك بظهور الخوارج بافريقية ، ودخولهم الى المغرب الأوسط وانتشار المذهب الاباضي بالعاصمة الرستمية ، وخصص لأجل ذلك عنوانا هو "نشأة الامارة الرستمية 160- 296هـ" ، ليتبعه بوصف مدينة تاهرت من خلال كتب الرحالة والمؤرخين ، ومنها كتاب الاستبصار ومعجم البلدان والمسالك والممالك والعبير والبيان المغرب.

كما أفرد فقرات حول أشهر المدن التابعة لها ، واصفا موقعها ومزارعها ومياهاها وحصانيتها ، معتمدا في ذلك على سليمان الباروني ، وهذا ما أكده قائلًا: "الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية. وعليه اعتمدنا نحن في تلخيص هذه العجالات عن هذه المراكز العمرانية" ، الأمر الذي جعله يقع في بعض الأخطاء.

اعتمد المؤلف على نص لليعقوبي يصف فيه مدينة تاهرت (اليعقوبي، 1988. 113- 114)، وهذا بناء على العبارة الواردة لديه "وواصل اليعقوبي وصفه لتاهرت..." لكن نجد في الهامش مصدر ابن خلدون بدلا من اليعقوبي(يحيى،ب،المرجع السابق.102)، كما وردت مصطلحات وجمل غير مضبوطة كجبل جزول (يحيى،ب،102) الذي كتب "قزول" (نفس المرجع.100) وفي صفحة أخرى "كزول" (نفسه.107)، أما نهر "سهر"(مجهول،1985.167) فذكر باسم "سهور" ، باعتبار أن هذه التسمية قد ذكرها صاحب الاستبصار ، لكن الخطاء ورد لدى الباروني.

كما عرفت مدينة مازونة اعتمادا على الإدريسي أنها "مدينة في تل حصين فروخ في البر"(يحيى،ب،المرجع السابق.113)، لكن النص الأصلي جاء فيه "...ويولي حوض فروخ في البر مع الشرق مدينة مازونة"(الإدريسي ، 1994.ج.1. 271).

تابع الأستاذ يحيى بوعزيز حديثه عن أعلام الفكر والثقافة والاجتهاد في تيهرت الرستمية وقسمهم إلى إباضية وغير إباضية ، ليأخذ بعد ذلك نماذج عن بعض الشخصيات البارزة؛ كما تناول عهد الإمارات الادريسية مشيرا إلى انتقال إدريس

بن عبدالله من المشرق صوب بلاد المغرب، واستقراره بمدينة ويلي، وتأسيس الإمارات الادريسية بالمغرب الأوسط، مرفقة بقائمة أسماء امراء هذه السلالة. أما خلال العهد الأغلبي فلم يذكر الكثير عن المغرب الأوسط، والذي تناوله في فكرتين فقط: "وفي عام 795م عهد إليه بولاية إقليم الزاب جنوب شرقي الجزائر على جانبي بسكرة" (يحيى، ب، المرجع السابق، 136)، وفي مكان آخر "وقد امتد نفوذهم بالمغرب الأوسط حتى مدينة عنابة في الشمال والى بلاد الزاب في الجنوب والى طرابلس الغرب شرقا" (المرجع نفسه، 137)، ليركز حديثه حول إرسال الحملات إلى صقلية والاستيلاء على مدنها ونشرا لحضارة العربية بها.

كما أدرج عنوان خاص بعهد "الدولة العبيدية الفاطمية"، تناول من خلاله الاعداد للدعوة وانتقالها نحو بلاد المغرب، ثم فتح المعز لمصر واستقرار الخلافة بها، وبداية توسعته لفتح الشام والحجاز، متجاوزا بذلك أهمية المغرب الأوسط ومدنه بالنسبة للخلافة، مع العلم أن هناك مصادر خاصة بهذه الفترة أشارت إلى دورا لقبائل البربرية، ومساندتها للخلفاء الفاطميين، وكذا الدور الذي لعبته مدن المغرب الأوسط الشرقية في دعم حركاتهم التوسعية، كالمسيلى التي اختطها أبو القاسم و"رسمها برمحه... وأمر علي بن حمدون.. أن يبنها ويحصنها.. وأمر أن تدخر فيها الأقوات وأنواع المأكولات... فلم تزل تلك الأطعمة مصونة مخزنة إلى فتنة أبي يزيد. وخروج إسماعيل المنصور إليه وإتباعه فكانت عوننا له ولأنجاده وإمداده عند وصوله إلى جبل كيانة" (ابن حماد، أ، 1984.2، 25).

لم يختلف دور مدينة "أشير زيري" عن سابقتها، خاصة وأن زناثة "قد استطالت على أهل تلك الناحية من أيام بنى الأغلب ثم تزايد ضررهم في أيام المهدي والقائم" (النويري، أ، 1985، 304)، الأمر الذي دفع القائم إلى مساعدة زيري بالصناع ومواد البناء، وحمد الله على بنائها وقال: "مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر..." (النويري، المصدر نفسه، 305).

أما "مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا"، استهله بالحديث عن أوضاع شبه جزيرة المغرب قبل الإسلام، وما قدمه الإسلام لشعب هذا الإقليم، ثم أشار إلى قيام المراكز

المغربية، ودور بلدان المغرب الإسلامي في نهضة أوروبا، ليفرد بعده مكانا لقيام مركز بجاية ورواد الفكر والثقافة فيه، وينهي حديثه بنماذج مما قدمه الغرب الإسلامي إلى أوروبا من مظاهر حضارية، وعليه فمدينة بجاية لم تحظى إلا ببعض الفقرات رغم دورها التاريخي والحضاري.

يعتمد الأستاذ يحيى بوعزيز نفس الأسلوب وهو يستعرض فترة بني زيري وبني حماد(361- 547هـ/972- 1152م)، عهد الدولة المرابطية في المغرب والأندلس(434- 541هـ/1059- 1147م)، عهد الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس(515- 668هـ/1121- 1269م)، عهد الإمارات الحفصية(627- 981هـ/1229- 1273م)، عهد إمارة بني مرين(668- 796هـ/1269- 1393م)، المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية(1236- 1554م).

والملاحظ أن الأستاذ كان لديه أشكال في التعامل مع المصادر والمراجع، وضبط عناوينها منها:

الشريف الإدريسي " وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق(هامش2. 159) ضبط العنوان"وصف إفريقيا الشمالية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، صححه ونشره هنري بيرس، الجزائر، 1957.

ابن سعيد المغربي"المغرب في حلي المشرق، والمشرق في حلي المغرب"، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة: 1953- 1954.

ضبط العنوان"المغرب في حلي المغرب، تحقيق ونشر شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1953.

كما اعتمد المؤلف على بعض المراجع، وصنفها على أساس أنها مصادر، نذكر منها "شمس العرب تسطع على الغرب" لصاحبه زيقريد هونكة، وتم الاستناد عليه في أكثر من صفحة(يحيى، ب، المرجع السابق.164.165.168.170.172).

في الواقع نحن لا ننتقد أستاذنا الفاضل، ولا نحمله أي مسؤولية، إنما حاولنا أن نبرز الجهد الذي بذله في كتابه، والإشكال الذي وقع فيه، وهذا يتضح من

خلال المصادر والمراجع التي اعتمدها والمادة التاريخية التي كانت عامة وبحاجة إلى التوسع.

ولا يفوتنا أن نوه أنه قد ألف هذا الكتاب في فترة كانت المدرسة الجزائرية والجامعة في حاجة إلى دراسات جزائرية محضة، فبعد عودته من مصر وجد الجزائر تفتقد لكتب تاريخية بأقلام جزائرية، لكن هذا لا يمنعنا من تصحيح الهفوات غير المقصودة في الطبعات الجديدة (1999م، 2007م)؛ ومع هذا يبقى الدكتور يحيى بوعزيز رمزا للعطاء والجد والتفاني في العمل، ويجب على الطليعة أن تبرز وتتم ما بدأه المرحوم، وتحاول ملء الفراغ الموجود ضمن كتاباته.

البيبلوغرافيا :

- 1- الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق مجموعة مؤلفين، د/ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994.
- 2- ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي، د/ط، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984.
- 3- ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، تحقيق ونشر شوقي ضيف، دارا لمعارف، 1953.
- 4- ابن الصغير المالكي: أخبار الأئمة الرستمين، تحقيق د.محمد ناصر- إبراهيم بحاز، د/ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
- 5- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دارالنشرالمغربية، الدار البيضاء، 1985.
- 6- النويري: تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط- من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب- ، مصطفى أبو ضيف أحمد، د/ط، دارالنشرالمغربية، الدار البيضاء، 1985 .
- 7- اليعقوبي: كتاب البلدان، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988 .
- 8- يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر- الجزائر القديمة والوسطية- ، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.